دراسات قرآنية

تدبر القرآن

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

فلا شك أن تلاوة القرآن والاستماع له، والتدبر في آياته من أبر الأعمال وأفضل العبادات، متى رُوعيت عند تلاوته والاستماع له حرمته، وحُفظت حقوقه، وصينت كرامته، وعُرفت منزلته، ولبس كل من التالي والسامع رداء الخشية والتوقير للمتلو والمسموع.

وحسب التالين من الفضل قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ» [فاطر: ٢٩- ٣٠].

وينبغي لقارئ القرآن أن يتخلق بأخلاق القرآن ظاهرًا وباطنًا، وأن يكون عمله موافقًا لما يتلو من أوامره، وأن يكون أبعد الناس عن نواهيه وزواجره، فليس يليق بمن يقرأ القرآن أن يقع في شيء من محارمه، أو يقصر في شيء مما أمر به، وأن يستحضر عند تلاوته أن يتلو كلام ربه، المنزل على رسوله للاهتداء والعمل والتدبر والذكرى؛ لتكون تلاوته أوقع في نفسه ونفوس السامعين، وليكون أقرب إلى الخشية عند التلاوة، فإنه متى استحضر في نفسه عظمة القرآن وعظمة من أنزله، وعظمة من نزل به، وعظمة من أنزل عليه، عَلَتْه الخشية وغشيته الرحمة، وحفته الملائكة.

وينبغي للقارئ أيضًا أن يتذكر عظمة القرآن، وأنه كتاب جاء للهداية والإرشاد فليفرغ قلبه من الشواغل لتدبره، والاعتبار بما فيه، ولا يصرف نفسه عنه بمراعاة الألحان المحدثة والأنغام المبتدعة، وليكن حال القراءة والاستماع للقرآن في خشية وخشوع، متأملاً لما يُتلى من عظات بالغة وعِبَر نافعة، وليسأل نفسه عما يسمع من الأوامر: هل قام بها، ووفى حقها؟ فإن كان فليحمد الله، وإن رأى في نفسه تقصيرًا عالجه، وأخذ عليها العهد بالامتثال لما سمعت من الأوامر، والانتهاء عما يُتلى عليه من النواهي؛ ليكون القرآن حجة له ونورًا وهدى وشفاء لمرض نفسه، وجلاءً لصدأ قلبه.

معنى التدبر

معنى تدبر القرآن: هو تفهم معاني ألفاظه، والتفكر فيما تدل عليه آياته، وما دخل في ضمنها، وما لا تتم تلك المعاني إلا به.

قال الطبراني رحمه الله في قوله تعالى: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ» [ص: ٢٩]: «ليتدبروا حجج الله التي فيه، وما شرع الله فيه من الشرائع، فيتعظوا ويعملوا به». اهـ.

وقال أبو بكر بن طاهر: «تدبر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه». [الجامع لأحكام القرآن ١٩/٣٨].

والتدبر يتعدى إلى المتأمل فيه بنفسه، يقال: تدبر الأمر. فمعنى «يتدبرون القرآن»: يتأملون دلالته. [التحرير والتنوير ٣/١٣٧].

أهمية تدبر القرآن:

تبرز أهمية تدبر القرآن الكريم في أمور كثيرة، وكل أمر كاف وحده أن يكون داعيًا لتدبر القرآن، والتأمل في معانيه، والتأثر عند قراءته، ولعل من أهمها الأمور التالية:

أولاً: بركة القرآن:

وصف الله كتابه بأوصاف عظيمة منها أنه كتاب عزيز مبارك، وأنه نور وفرقان ورحمة وبرهان، وبصائر وشفاء، وهدًى وبشرى، قال الله تعالى: «هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [الأعراف: ٢٠٣]، وكثيرًا ما يقرن الله هذه الأوصاف بالحث على التدبر والاعتبار والتذكر، قال الله سبحانه: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ» [ص: ٢٩]، والمعنى: كتاب كثير الخير والبركة. [فتح القدير للشوكاني ٤/٤٣٠]، وقال عنه سبحانه: «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [المائدة: ١٥- ١٦].

ويقول سبحانه: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [العنكبوت: ٥١]، ويبين الآجري رحمه الله: بركة القرآن على العبد الذي أقبل على كتاب ربه بأدب واعتبار فيقول: «من تلا القرآن وأراد به متاجرة مولاه الكريم، فإنه يُربحه الربح الذي لا بعده ربح، ويعرفه بركة المتاجرة في الدنيا والآخرة ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم أثر بركة القرآن وقوة تأثيره وتميزه عن باقي معجزات الأنبياء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة». [رواه البخاري].

ثانيًا: حاجة القلب إلى تدبر القرآن:

إن في القلب حاجة لا يسدها إلا ذكر الله والتلذذ بكريم خطابه، وإن فيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بكتابه، وإن فيه قلقًا وخوفًا لا يؤمنه إلا السكون إلى ما بشر الله به عباده، وإن فيه فاقة لا يغنيها إلا التزود من حكم القرآن وأحكامه، وإن فيه لحيرة واضطرابًا لا ينجيه منها ويهديه إلى سواء الصراط إلا الاهتداء بنور ربه وبرهان كتابه العزيز قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾) [يونس: ٥٨]، وإن العبد المؤمن مهما بلغ من العلم مكانة ومن التقوى منزلاً، فإنه لا يستغني عن القرآن مثبتًا وهاديًا ومعينًا - ولذلك قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن لصلاح قلوبها، وثباتها على الهدى والدين».

والله سبحانه وتعالى - حينما عاتب الصحابة رضي الله عنهم - في خشوع قلوبهم، والتأثر بكلامه حذرهم أن مغبة التمادي في هجر تدبر كتابه هي قسوة القلوب، فقال: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) [سورة الحديد آية: ١٦]. والتدبر حال سماع القرآن يزيد القلب نورًا وإيمانًا.

قال جندب بن عبد الله رضي الله عنه: «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن فتيان فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا». رواه ابن ماجه.

قال ابن القيم رحمه الله: «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، والرضا والتفويض، والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله».

وقال رحمه الله: «فليس أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع فيه الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر.. وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه وتوطد أركانه.. وتعطيه قوة في قلبه، وحياةً وسعةً وانشراحًا وبهجة وسرورًا فيصير في شأن والناس في شأن آخر، فلا تزال معانيه تنهض بالعبد إلى ربه، وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق، وتناديه كلما فترت عزماته، وونى في سيره: تقدم الركب وفاتك الدليل، وفي تأمل القرآن وتدبره أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحِكَم والفوائد». [مدارك السالكين ١/٤٥١].

ثالثًا: ذم من ترك تدبر القرآن ولم يتأثر به:

وقد ذم الله في كتابه حال من هجر تدبر القرآن، ولم يفقه الآيات، ولم يدبَّر القول في صيغ مختلفة، قال سبحانه: «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ» [المؤمنون: ٦٨]، وقال سبحانه: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) [سورة الفرقان آية: ٣٠]، قال ابن كثير رحمه الله: «وترك تدبره من هجرانه». [تفسير ابن كثير ٦/١٠٨].

وقال القرطبي في تفسيره قوله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) [سورة محمد آية: ٢٤]: «عاتب المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن والتفكر فيه وفي معانيه».

وقد عد العلماء التدبر للقرآن والوقوف عند أحكامه والاعتبار بأمثاله من النصح له، وقد تنوعت عباراتهم في ذلك فقد قال الإمام النووي رحمه الله في بيان النصح لكتابه: «قال العلماء رحمهم الله - النصيحة لكتاب الله تعالى: هي الإيمان بأنه كلام الله تعالى... ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته، وتحسينها والخشوع عندها، وإقامة حروفه في التلاوة.. والوقوف مع أحكامه، وتفهم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواعظه، والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم بمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه والدعاء إليه». [التبيان في آداب حملة القرآن ص١١٣].

جعلنا الله ممن يتلوه حق تلاوته، ويتدبره حق تدبره، وجعله شفيعًا لنا يوم القيامة، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.